مقاصد الشريعة الإسلامية العامة

بحث

الاستاذ الدكتور خالد رشيد الجميلي

أستاذ الفقه المقارن ــ الجامعة الإسلامية / بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

وقد تجلى مبحث المقاصد امتدَّ دورهُ امتداد السموات والأرض لأنهُ تحليل للقُرآن الكريم والحديث الشريف لِهذا رأى الجميلي أن يتمتع ببدره ويسبح ببحره الفراتي العذب لجُةً لجُةً حتى جَزءَهُ إلى مباحث شتى بادئاً بالمقاصد العامة منتهياً بما شاء الله في المباحث القادمة راجياً من الباري عَزَ وَجَل أن يجعل ذلك في ميزان الأعمال والحمد لله.

المقصد الأول (وحدانية الله تعالى):

قال تعالى ﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾(٢) انفرد بالوحدانية وأبدع الخلائق كلها وكان بقاء الخلق إلى ما شاء جلت قدرته وكان خلق الإنسان في أحسن تقويم مكونات آخر إنسان كمكونات آدم عليه السلام ولهذا استطاع الأطباء وعلماء النفس والاجتماع أن يشيدوا مناهجهم حول الإنسان نظراً لوحدة مكونات الجنس البشري وكذلك الحال في خلق الحيوان أو النبات والماديات جمعاء من الذرة إلى الصخرة، ترتبط بقانون واحد بسبب وحدانية الخالق الأحد الواحد ولولا ذلك لفسد الخلق، هذا قصد انفراد الخالق الأسمى بالوحدانية جلت عظمته وتعالت قدرته..قال تعالى ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٣).

المقصد الثاني (ديمومة بقاء السموات والأرض):

ديمومة بقاء السموات والأرض برفع الفساد عنها وهذا المقصد تجلى بوحدانية الله تعالى إذ لو وجد له نِدٌ أو شريك لرأى كل واحد ما لا يرى الآخر حتى أفسد السموات والأرض زوالاً وفناءً قال تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٢) سورة الإخلاص الآيات ١- ٤.

(٣) سورة المؤمنون آية ٩١.

(١) سورة الأنبياء آية ٢٢.

المقصد الثالث (كل شيء خلق بالحق والحكمة):

كل شيء خلقه الله تعالى من السموات إلى الأرض ما بينهما خلق بالحق وبالحكمة، والحكمة تارة ندركها وتارة تعجز عقولنا عن إدراكها، وقد يدرك أهل زمان ما لا يدركه غيرهم نظراً لاختلاف الملكات والمدركات العقلية والحسية، هاهم علماء الفلك يدركون في عصرنا ما عجز عن إدراكه من سلف وقد يدرك ما يبهر العقول من سيخلف عصورنا، قال تعالى في نفي اللعب من خلق السموات والأرض وما بينهما ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[٢] وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[٣].

المقصد الرابع (خلق الإنسان):

للإنسان مقصد منزه إذ إن الله تعالى ما خلق الإنس والجن إلا للعبادة المقدسة فإذا أنف الإنسان واستكبر عن عبادة الرحمن فقد أخل بمقصد خلق الله تعالى إياه، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤].

وقد نفى الله تعالى العبث عن خلق الإنسان ووجوده إذ لو وجد الإنسان عبثاً لما كان مكلفاً وبهذا فإن مقصد خلق الإنسان في الشريعة الإسلامية يختلف عن مقصد الفلسفة الوجودية والدهرية والطبيعية إذ أن الإنسان عندهم كالحيوان لا يهمه إلا إشباع غريزته قبل الرحيل ولهذا يبررون إدراك الغايات بشتى الوسائل وإن كانت رذائل. قال تعالى في حكم إبطال العبث ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٥] هذا استفهام إنكاري أي أن الله سبحانه وتعالى ينكر وجود العبث في خلق الإنسان ولهذا كان الإنسان مكلفاً بعبادة الله تعالى وهذا المقصد يبطل فلسفة الإنسان اللامنتمي والمجهول لأن الإنسان ينتهي بالضرورة إلى عبادة المبدع الأسمى، والإنسان معلوم البداية والنهاية، ثم البداية ثم اللانهاية، والأمة المستجيبة للمقصد الأسمى لعبادة الله تعالى مكلفة بالعدل الوسيم وبهداية الناس إلى الصراط المستقيم قال تعالى ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[٦].

المقصد الخامس (مقصد توازن الخلق):

قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[٧] وقال تعالى ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[٨] مقصد التوازن

---

(٢) سورة الأنبياء آية ١٦.

(٣) سورة الدخان آية ٣٨.

(٤) سورة الذاريات آية ٥٦.

(٥) سورة المؤمنون آية ١١٥.

(٦) سورة الأعراف أية ١٨١.

(٧) سورة الأنبياء آية ٣٢.

(٨) سورة الرحمن آية ٧ – ٩.

يتجلى في خلق السموات والأرض وفي خلق كل شئ لولاه أي لولا قسط الميزان الإلهي لما بقي مخلوق ألبته أبداً، قال تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[١] بمقتضى مقصد التوازن في كل المخلوقات يحدث الفناء لو اقتربت الكواكب من الأرض ولو اقترب بعضها إلى بعض ولو زاد مقدار البرودة أو الحرارة ولو ارتفع مقدار السكر عند الإنسان أو انخفض أو ارتفع ضغطه أو زادت حوامض رحم المرأة أو نقصت أو حدث أي إخلال بالميزان المقصود من الرب المعبود لما بقي مخلوق عاجلاً أو آجلاً في كل وجود ولهذا حرم الله على الإنسان القسط في الميزان لأن المجتمع بلا ميزان كسفينة بلا ربان قال تعالى ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[٢] فالقدر والحكمة ميزان الله تعالى ويجب على الإنسان أن يكون موزوناً في كل حركاته وكلماته وسكناته لئلا يخالف المقصد الإلهي الميزان والقدر[٣].

المقصد السادس (خلق الأرض وما عليها):

قصد الله تعالى من خلق الأرض أن تكون للإنسان فراشاً يهنأ بها وطهوراً يُعبد الله تعالى عليها ومهاداً يستأنس الإنسان أو يستنعم بها أحل الله له فوقها قال تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤] وقال تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً﴾[٥]. وقد مهد الله الأرض ليكون الإنسان قادراً على الاستقرار والتقلب فوقها والسير فيها فمن جعل هذا المهاد مأوى للرذيلة والفساد غضب عليه رب العباد لأنه خالف قصد خلق الأرض في الإيجاد.

المقصد السابع (مقصد خلق ما في الأرض):

ما أعظم الله تعالى إذ جعل كل ما في الأرض وما فوقها نعمة للإنسان إذ منحه قدرة استغلاله والتمتع به والتنعم بما أودع فيه من القدرة على اكتشاف أسراره ومعرفة أغواره، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٦] وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٧].

ولهذا أراد الله تعالى من الإنسان أن يكون خليفة في الأرض ليعمرها وليصلحها بعبادة الله فوقها لأن كل حركة أو سكون يمكن أن يكون عبادة إذا قصد بها وجه الله تعالى وإذا وجهت الحركة وفق المقصد

---

(١) سورة القمر آية ٤٩ – ٥٠.

(٢) سورة الحجر آية ١٩.

(٣) انظر صفوة التفاسير ١٠٧/٢.

(٤) سورة البقرة آية ٢٢.

(٥) سورة النبأ آية ٦.

(٦) سورة البقرة آية ٢٩.

(٧) سورة البقرة آية ١٦٨.

الموزون كما ذكرنا سابقاً، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، والله سبحانه وتعالى عالم علم اليقين بقدرة الإنسان على إعمار الأرض وإصلاحها فجعلها له فراشاً ومهاداً.

المقصد الثامن (مقصد هبوط الإنسان على الأرض):

قال تعالى ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2]، حين ظرف يدل على نفي الخلود وقد تجلى الواقع مصدقاً لقول الله تعالى إذ ما من مخلوق على الأرض إلا رحل من فوقها واستقر في جوفها ولم يترك الله تعالى الإنسان على الأرض سدى بل منحه سر السعادة والهناء وأرشده للحذر من هاوية الضلالة والشقاء وهذا أزكى مقصداً من مقاصد الهداية، قال تعالى ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾[3].

المقصد التاسع (المقصد من خلق الجبال):

قال تعالى ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[4]، قال الرازي: لما كانت بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة، ذكر الله تعالى هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة[5]، قال تعالى **﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**[6].

وقال تعالى **﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾**[7]، المقصد من خلق الجبال المحافظة على الأرض لأنها أوتاد توازن بقاء الأرض على الماء إذ لولاها لما صارت للإنسان فراشاً ومهاداً إذ الأرض التي تميد تهتز وتتزلزل فلا يستطيع أحد العيش فوقها، قال الأصفهاني (ميد.. الميد اضطراب الشئ العظيم كاضطراب الأرض قال: أن تميد بكم. أن تميد بهم ومادت الأغصان تميد)[8].

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠.

(٢) سورة البقرة آية ٣٥ – ٣٦.

(٣) سورة طه آية ١٢٣.

(٤) سورة النحل آية ٨١.

(٥) انظر التفسير الكبير ٩٣/٣٠.

(٦) سورة النحل آية ١٥.

(٧) سورة الأنبياء آية ٣١.

(٨) انظر مفردات الأصفهاني ٤٩٨.

المقصد العاشر (الماء):

الماء أساس المخلوقات كلها قال تعالى ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾[1]، وقال تعالى ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ**﴾[2]، **الماء أساس الخلق لأن التراب لا يكون طيناً إلا به وله مقصد ديمومة الحياة فهو أزكى نعم الله تعالى، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[3]، وبناءً على هذه الأقباس القرآنية الوهاجة تجلى مقصد الماء أساس الحياة وديمومة المخلوقات إذ لولاه ما ظهر نبات على الأرض ألبته أيضاً، وصدق الله العظيم إذ دلت رحلات علماء الفلك إلى الكواكب ولاسيما القمر على انعدام الحياة بسبب انعدام الماء إذ لو وجد لصار سبباً في الإحياء. قال تعالى ﴿**وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾[4].

المقصد الحادي عشر (خلق الرياح):

خلق الله سبحانه وتعالى الرياح بقصد النعمة في ديمومة الحياة إذ لولاها لفني النبات إذ لا يتكاثر عبر الأجيال الصاعدة إلا بها، قال تعالى ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾[5]، وقال ابن كثير (يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر)[6]، ومن مقاصد الرياح أنه سبب مباشر في تسيير السحاب للمخلوقات التي يكتب الله تعالى لها الإرواء والسقاية، قال تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[7]، ومع أن المقصد من خلق الرياح نعمةٌ كبرى للإنسان المستقيم فهي نقمةٌ كبرى على الأمم التي تضل سواء السبيل، قال الجليل ﴿**مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[8]، يستنبط من هذا القبس الإلهي الوهاج أن الإنسان هو الذي يحول مقصد النعمة إلى مقصد النقمة إذا ظلم نفسه بالزيغ عن الصراط المستقيم فاختار في الدنيا العذاب الأليم وفي الآخرة عذاب الجحيم.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٠.

(٢) سورة المؤمنون آية ١٢.

(٣) سورة الأنعام آية ٩٩.

(٤) سورة النحل آية ٦٥.

(٥) سورة الحجر آية ٢٢.

(٦) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٥٤٩/٢.

(٧) سورة الأعراف آية ٥٧.

(٨) سورة آل عمران آية ١١٧.

المقصد الثاني عشر (البحار):

البحار قصد الله تعالى من خلقها النعمة المتجلية في سبيل الإنسان وهو ينتقل في العالمين بالجواري التي جعل الله تعالى قانون الكثافة فيها مهيأ للطوفان دون الإغراق سبحان من جعل كثافة الحصى لا تطوف مع صغرها، وسبحان الذي جعل ألوف الأواني مها كان معدنها وثقلها تطوف مع عظمة حجمها قصداً، لعون الإنسان على التنقل في الأكوان قال تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾[1]، ومن مقاصد خلق البحار عظمة الله تعالى المتجلية فيه إشباع البطون والعيون إذ الطعام تشبع به البطون والحلية تقر بها العيون قال تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[2]، وما أعظم أسرار قوانين الله تعالى إذ وفقت ووازنت بين بحرٍ فرات وبين بحرٍ أُجاج الذي لولا قانون الله تعالى لتجاوز الأُجاج على العذب بصفتهِ أكثر منه أضعافاً مضاعفة ولكن الله تعالى خلق كل شئ بقدر والمقصد ديمومة الحياة قال تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً**﴾[3].

المقصد الثالث عشر (مقصد النجوم):

جلت عظمة المبدع الجليل الأسمى زين السماء بمصابيح لتكون هداية لأزكى مخلوق كرمه الله ألا وهو الإنسان وما أدراك ما الإنسان صاحب طاقة الخير والشر، قال تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[4]، ثم مقاصد أخرى قد يعلمها الراسخون في علم الفلك، قال تعالى ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[5]، وقوله تعالى مسخرات بأمره أخال فيه سراً من أسرارهِ قد يعيها الراسخون كما ذكرتُ آنفاً وقد لا يعيها أجمعون بمقتضى قوله تعالى ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾[6] وقال تعالى ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾[7] وقال تعالى ﴿**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً**

---

(١) سورة يونس آية ٢٢.

(٢) سورة النحل آية ١٤.

(٣) سورة الفرقان آية ٥٣.

(٤) سورة الأنعام آية ٩٧.

(٥) سورة الأعراف آية ٥٤.

(٦) سورة الأعراف آية ٥٤.

(٧) سورة الملك آية ٥.

وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[١]. يستنبط من هذه الآيات مقصدان مقصد الهداية والإنارة من المصابيح التي أودعها الله للإنسان لئلا يكون حائراً خاسراً والمقصد الآخر أسرار العالم العلوي لا يطلع عليها البتة العالم السفلي مهما بلغ علمه إذ الشيطان ليس بالضرورة من الجن بل قد يكون من الإنس. قال تعالى ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾[٢] الشطن الحبل الطويل شعبه وهو بئر شطون بعيدة القرار والشاطن الخبيث والشيطان هو كل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة[٣]. وقال أبو عبيدة الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوان وقال الأصفهاني في تفسيره قوله تعالى ﴿**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾[٤] هم مردة الجن ويصح أن يكونوا هم مردة الإنس أيضاً[٥]. وبهذا يتبين لنا أن شياطين الإنس عاجزون عن الوصول إلى السماء مهما بلغت قوة أجهزة التنصت التي يخترعونها لأن المجموعة الشمسية للجن وللإنس بالمرصاد فلا يطلع العالم السفلي على أسرار العالم العلوي والله أعلم.

المقصد الرابع عشر (مقصد الليل والنهار والنوم لهذه المخلوقات مقاصد يعلم الله كُنهها):

ومقاصد يعلم علماء السنة التكوينية جانباً من أسرارها ومقاصد أخرى يعلم المفسرون حقيقتها فالنهار معاش للإنسان وهذا أعظم مقصد لولاه لما استطاع أن يتوصل إلى سبل الحياة والليل لباس تلبسه الكائنات لتستعين بعد ذلك على مقصد المعاش والنوم تهنأ به الأرواح والأجساد استعداداً لمعاش الحياة، قال تعالى ﴿**وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً**﴾[٦] والسبت القطع وسبات النوم قطع للعمل والحركة حتى تتسامى في المعاش البركة ولأن النهار مشرق كان سبباً في العمل المغدق، قال تعالى ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً**﴾[٧].

المقصد الخامس عشر (المعادن):

قال تعالى ﴿**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾[٨] المعادن كافة خلقت للإنسان قال تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾[٩] وقد اصطفيت مقصد إنزال الحديد لأنه عنوان الطاقتين طاقة المنفعة وطاقة البأس وما خلق الله داءاً إلا خلق له دواء، وإلا فما دامت الحياة إلى الحين الذي أراده الله تعالى قال ابن كثير رحمه الله أن معنى (فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ): أي في معايشهم كالسكة والفأس والقزوم والمنشار

---

(١) سورة الصافات آية ٦ – ٩.

(٢) سورة الأنعام آية ١١٢.

(٣) انظر قاموس المحيط - مادة شطن.

(٤) سورة البقرة آية ١٠٢.

(٥) انظر حجم مفردات ألفاظ القرآن للراكب الأصفهاني ٢٦٨.

(٦) سورة النبأ آية ٩ – ١١.

(٧) سورة المزّمّل آية ٦ – ٧.

(٨) سورة الحديد آية ٢٥.

(٩) سورة البقرة آية ٢٩.

والأزميل والمجرفة والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوامة للناس بدونه وغير ذلك[١]، والحديد الموسوم بالبأس الشديد يكون خير منفعة تقي الإنسان بأس أخيه الإنسان ولهذا فقد أوحى الله تعلى لداود عليه السلام صنعة لبوس الحرب قال تعالى ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ**﴾[٢]. قال ابن كثير يعني صنعة الدروع، قال قتادة إنما كانت الدروع قبلة صفائح وهو أول من سردها خلقاً كما قال تعالى ﴿**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ**﴾[٣] أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار وتغلظ المسمار فتقد الحلقة ولهذا قال لتحصنكم من بأسكم في القتال[٤]. وقال تعالى في سر الجبال والطير والمعادن ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[٥].

المقصد السادس عشر (مقصد الحيوان):

مقصد خلق الحيوان الذي أباحت الشريعة الإسلامية أكله تلذذ الإنسان به لحماً ولبناً وهو سبب من أسباب ديمومة الحياة وفي الإشباع تارة وفي اتقاء الحر والبرد تارة أخرى وفيه مقصد قرة العين إذ مِنْ الحيوان ما جعله الله زينةً وفي الحيوان مقصد الشفاء من الأدواء تخص عسل النحل المنصوص عليه بالقرآن الكريم قال تعالى ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٦] وقد ذكر الأطباء فوائد ومنافع يشق استقراؤها فهو أنجع دواء للأمراض الخارجية والداخلية[٧]، وقال تعالى في مقصد خلق الأنعام الأكل والركوب ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾[٨]، ولأن المقصد مِنْ خلق الأنعام إشباع الإنسان فما حرم الله أياً منها على الإنسان خلافاً لليهود الذين جعلوا أنفسهم مشرعين مع الله ولا مشرع إلا الله تعالى وكذلك حرم المشركون جانباً من الأنعام فجاء القرآن الكريم ليبين المقصد الأساسي من خلقها ألا وهو انتفاع الإنسان بها ولهذا اثبت القرآن الكريم كذبهم لإفصاحه عن إباحتها جملةً وتفصيلاً، قال تعالى ﴿**وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ**﴾[١] وقال تعالى ﴿**وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ**

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٣١٥/٤.

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٠.

(٣) سورة سبأ ١٠ – ١١.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٨٧/٣.

(٥) سورة سبأ ١٠ – ١١.

(٦) سورة النحل آية ٦٨ – ٦٩.

(٧) انظر الجانب الطبي في السنة النبوية الشريفة لعبد الباسط خليل محمد الدرويش ٢٤٠.

(٨) سورة غافر آية ٧٩.

(١) سورة الأنعام ١٣٦.

وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[٢]، وقال تعالى ﴿**مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾[٣] وكان الجاهليون إذا أنتجت الناقة خمس أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وحرموا ركوبها وهي بحيرة وكان الرجل يقول إذا قدمت سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لألهتهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وهي الوصيلة، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا حمى ظهره وهو الحام، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادات كلها فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام[٤]، وقال تعالى ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[٥].

المقصد السابع عشر (مقصد الموت والحياة):

الموت مخلوق والحياة مخلوقة والقصد من ذلك اختبار الرحمن الإنسان لأن الحياة رحلة إلى الجنان بحسن العمل أو إلى النيران بسوء العمل، قال تعالى ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾[٦] **وقال تعالى ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ * ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ**﴾[٧] ولما كان القرآن يفسر بعضه بعضاً فقد قال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود ﷺ هذه الآية كقوله تعالى ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[٨]، وكذلك قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك وهذا هو الصواب إذ لا شك فيه ولا مريه[٩] وهنالك آراء أخرى في التفسير غضضنا الطرف عنها لأن بحثنا متعلق بالمقاصد ونعتمد الأصوب الذي يتعلق بمنهجنا وقد اقتضت إرادة الله الأزلية أن تحل مصيبة الموت بكل كائن حي لأن الحياة حركة ونهاية الحركة السكون ولأن الحياة قوة ونهاية القوة الضعف والوهن ﴿**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ**﴾[١]، وقد نفى الله تعالى الخلود عن كل من

---

(٢) سورة الأنعام آية ١٣٨ - ١٣٩

(٣) سورة المائدة آية ١٠٣.

(٤) انظر صفوة التفاسير محمد علي الصابوني، ٣٦٨/١ – ٣٨٩.

(٥) سورة النحل آية ٤ – ٨.

(٦) سورة الملك آية ٢.

(٧) سورة غافر آية ١١ – ١٢.

(٨) سورة البقرة آية ٢٨.

(٩) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي، ٧٣/٤.

(١) سورة يس آية ٦٨.

وما في الوجود قال تعالى ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ**﴾[٢] ويبدو أن الحياة بما فيها من نفحات أو لفحات مقصدها الامتحان والاختبار حيث الرحيل إلى الجنة أو إلى النار، قال تعالى ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[٣]، قال المفسرون قوله **(وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)** أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط كما قال علي أبن أبي طلحة عن ابن عباس ونبلوكم يقول نبتليكم بالشر والخير فتنة بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلال، وقوله **(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)** أي نجازيكم بأعمالكم[٤] ما أعظم اللبيب لو تدبر القرآن وتفكر بالحياة لوجدها مشيدة على الابتلاء في كل التناقض والأضداد، والإنسان في جهاد دائم مع الابتلاء الدائم، قال تعالى ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً**﴾[٥]، جلت حكمة الله تعالى متى كانت الزينة ضرب من ضروب الابتلاء لأنها قد تستغل للشر فيحشر صاحبها مع أهل النار وقد تستغل للخير فيحشر صاحبها في جنة الأبرار، وما أجمل تفسيرها بما ورد عن الرسول ﷺ إذْ قال قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال (إن الدنيا حلوة خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت النساء)[٦] ثم حكم الله تعالى بفنائها فقال: وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً..أي وإنّا نصيّرها بعد الزينة إلى الخراب والدمار فنجعل كل شئ عليها هالكاً صعيداً جرزا لا ينبت ولا ينتفع به كما قال الصوفي عن ابن عباس في قوله تعالى (﴿**وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً**﴾ يقول يهلك كل شئ عليها ويبيد)[٧].

<u>المقصد الثامن عشر (اختلاف الأمم):</u>

مقصد اختلاف الأمم بين أمة متأخرة وأمة متقدمة وأخرى ضعيفة ومتقدمة ونامية وراقية كل ذلك ابتلاء الناس فرداً وأسرةً وأمةً لم تستوِ في هذه الحياة وما أجمل التعبير القرآني وما أبدعه إذ قال تعالى ﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[٨].. القرآن الكريم يرشد البشرية إلى أن تتسابق في الخيرات جمعاً جمعاً والبشرية تسابقت في الحرب العالمية الأولى والثانية فكانت كالنار أكلت بعضها بعضاً ثم تسابق الاتحاد السوفيتي المقبور مع المعسكر الرأسمالي المهجور فإذا بالماركسيين يخربون بيوتهم بأيديهم والرأسماليون لمصير اؤلئك سائرون، والمسلمون يُفْتَرضْ فيهم أن يسبقوا في الخيرات تحقيقاً للمقصد الأسمى، قال ابن كثير (فاستبقوا

---

(٢) سورة الأنبياء آية ٣٤.

(٣) سورة الأنبياء آية ٣٥.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٧٢/٣.

(٥) سورة الكهف آية ٧ – ٨.

(٦) أخرجه الإمام مسلم من طريق أبي سعيد الخدري ٢٠٩٨/٤.

(٧) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٧٢/٣.

(٨) سورة المائدة آية ٤٨.

الخيرات) وهي طاعة الله وإتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله والتصديق بكتابه القرآن الذي هو أخر كتاب أنزله[1]، ويبدو لي أن الخير مفرد مؤنث مجازي جمعه خيرات مع ورود جمع خيور في لغة العرب ولكن الجمع القرآني أفصح وقد توصلت إلى هذا المعنى من خلال قوله تعالى ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾[2] المال خير والبنون خير فكان الجمع خيرات.

المقصد التاسع عشر (مقصد الأنبياء والمرسلين):

الله تعالى هو العادل الأعدل خلق العباد والعبيد لعبادته دون سواه ومع أن فطرة الله التي فطر الناس عليها تحتم على الإنسان معرفة الله وتوحيده واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد فإن الله سبحانه وتعالى يعذب أمة قبل إعلامها وإنذارها، وقد قطع الله تعالى حجة المتمردين المشركين إذْ قال وهو أصدق القائلين ((**وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى**))[3] هذه حجة المشركين في محكمة العدل الإلهية الكبرى، وقد قطع الله تعالى هذه الحجج فأوصد أفواه الحجج بقوله ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾[4] وقد كتب الله تعالى على نفسه الرحمة لهذا لا يعذب المتمردين إلا بعد بعثة المرسلين، قال تعالى ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً * مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾[5]، وقال تعالى ﴿**وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[6]، ومن عظمة الله تبارك وتعالى أن الرسول ليحقق مقصده في تبليغ شريعة الله تبارك وتعالى جعله بشراً يتكلم بلسان قومه ولو كان الرسول ملكاً لما حدث ما حدث بين الناس والمرسلين إذْ المرسلون يتمتعون بالطاقة الإنسانية التي تنقل الفائدة والمقاومة والمنازلة أما الملك فهو يتمتع بطاقة لا محدودة إذا لم يشعر بالاطمئنان أفنى الإنسان كما حدث لقوم لوط وللمشركين في غزوة بدر قال تعالى ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَّوْ كَانَ فِي**

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٦٧/٢.

(٢) سورة المؤمنون ٥٥ – ٥٦.

(٣) سورة طه آية ١٣٤.

(٤) سورة النحل ٣٦.

(٥) سورة الإسراء آية ١٣ – ١٥.

(٦) سورة الملك آية ٦ – ١١.

الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾[1]، ولكي يتحقق المقصد الأسمى في تبليغ أحكام الله تعالى كان كل رسول يتكلم بلغة قومه قال تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[2].

المقصد العشرون (مقصد الرسالة الإسلامية):

قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[3]، الرحمة المهداة هي أول مقصد من مقاصد الرسالة الإسلامية وما خص الله تعالى أمة دون سواها بل خص البشرية جمعاء أو البشرية مع كل الأحياء، لأن العالمين جمع عالم والعالم يضم تحت جناحيه أجناسهُ وأنواعهُ وأفرادهُ وإن كان جماداً. وعلة مقصد الرحمة الشاملة للمخلوقات كُلها أن الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع لأن الشريعة لا تأتي إلا عن طريق المرسلين وحيث أن الرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين كانت الشريعة الإسلامية بالضرورة خاتمة الشرائع كلها لهذا كانت الرحمة روح كل حكم من أحكامها وسنفرد سِفراً ضخماً إن شاء الله تعالى خاصة بأمشاج الرحمة في أحكام الشريعة الإسلامية لهذا لم نتعمق الآن في شرحها، قال تعالى ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾[4] ومن مقاصد الرسالة المحمدية أن الرسول ﷺ ما اختصت رسالتهُ بقومه بل خصت الناس أجمعين توجه الإنذار لمن يبتغ غير الإسلام ديناً وقد دل واقع الحياة على السمو البشري إذْ ما من أمة دخلت الإسلام إلا سمت على كل الأنام، قال تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[5]، ومن مقاصد الرسالة المحمدية توجيه البشر مع الإنذار والشهادة على الناس كافة في محكمة العدل الإلهية الكبرى والدعوى إلى الله دون سواه، وبهذا تجلى الفكر الإسلامي في كل نفحاته سراجاً يستنير به من دخل رياضهُ فصار تحت سناه وقد دل واقع الحياة السالف والآنف على أن الإسلام روح الحياة لا يعز من جفاه ولا يذل من أتاه، قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً**﴾[6] ومن مقاصد الرسالة الإسلامية أنها برهان ونور يخاطب الناس أجمعين فيستنيرون ليروا برهان الخلاص بالاستقامة إلى يوم القيامة، قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ**

---

(١) سورة الإسراء آية ٩٤ - ٩٥.

(٢) سورة إبراهيم آية ٤.

(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٥ – ١٠٧.

(٤) سورة الأحزاب آية ٤٠.

(٥) سورة سبأ آية ٢٨.

(٦) سورة الأحزاب آية ٤٥ – ٤٨.

نُوراً مُّبِيناً * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾[1].

المقصد الحادي والعشرون (مقصد الدين الإسلامي):

مصدر الشرائع كلها الله تعالى وكل شريعة لها مقصد إلا أن الشريعة الإسلامية قصدت مقاصد الأديان ومقاصد إرادة الرحمن لأن الدين الإسلامي خاتم الأديان نسخ ما سواه وجمع فيه ما أراده الله وما يريده الله إلى يوم القيامة، قال تعالى ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ**﴾[2] يستنبط من هذا القبس القرآني الوهاج حكم تداخل رسالات كبار المرسلين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام) بالشريعة الإسلامية لهذا وجب على الناس كافة الالتزام بأحكامها، قال تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[3]، وقال تعالى ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[4] وقال تعالى ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[5] وقال تعالى ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾[6] ولأن الشريعة الإسلامية جمعت كل مقاصد الأديان مع مقاصدها فقد قطع الله الحجة على الناس إذْ أمر المسلمين بـ الإيمان بكافة المرسلين بل فرض على المسلم أن لا يفرق بين الرسول ﷺ وبين غيره من الذين سبقوهُ والرسول ﷺ نفسه فرض عليه بالضرورة الإيمان بكافة المرسلين، قال تعالى ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾[7]، وقال تعالى ﴿**قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[8].

المقصد الثاني والعشرون (مقصد التكليف بالأحكام):

---

(١) سورة النساء آية ١٧٤ – ١٧٥.

(٢) سورة الشورى آية ١٣.

(٣) سورة الصف آية ٩.

(٤) سورة آل عمران آية ١٩.

(٥) سورة آل عمران آية ٨٥.

(٦) سورة المائدة آية ٣.

(٧) سورة البقرة آية ٢٨٥.

(٨) سورة البقرة آية ١٣٦.

ما عرفت البشرية التكليف إلا برحمة الله تعالى قد بعث الأنبياء والمرسلين إلى العالمين ولولا هذه الرحمة الإلهية لعاش الناس عيشة الذئاب لا يحكمهم إلا فوضى الغاب حيث البقاء والنصر للأقوى والظلم على الأوهى، لكن الباري عز وجل يحب مخلوقه الإنسان الذي أبدع خلقه في أحسن تقويم. قال تعالى ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[1] وقد تدرج الله تعالى في إرسال الأحكام حتى تكون البشرية قادرة على الالتزام ثم نسخ من أحكام الشرائع السماوية السابقة واستبقى ما شاء أن يستبقي من الصحف الأولى لحكمة بالغة سائغة بعضها نعلمها وبعضها لا يعلمها إلا هو وما تطيقهُ قدرة البشرية على الالتزام بتدرج الأحكام، قال تعالى ﴿**مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2]. ولما كانت الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع لصفة الرحمة المهداة خاتم الأنبياء والمرسلين وبمقتضى قانون الشرائع السماوية لا تشع شريعة سماوية إلا عن طريق الرسل فقد كانت الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع جعل الله سبحانه وتعالى ما أراد فيها من الأحكام التي كانت في الشرائع الأخرى ما لم تنسخ بآية قرآنية محكمة، قال تعالى ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ**﴾[3].

وحيث أن مبحث الحكم قسم من أقسام أصول الفقه فقد آثرنا عدم الخوض فيه إلا بحدود ما يتعلق بمقاصد الشريعة الإسلامية. من شروط التكليف بالأحكام كونه تحت قدرة الإنسان لأن الذي يريد أن يطاع لا يأمر إلا بالمستطاع وهذا التوجيه الإلهي السديد نفحات من رحمته جلت قدرته بالإنسان إلى يوم القيامة استقرْينا أحكام الشريعة الغراء ما وجدنا البتة حكماً يعجز المسلم عن الالتزام به. بينما نجد الشرائع الأخرى ما يدل على غضب الله تعالى ولاسيما على اليهود الذين عتوا عتواً كبيراً، فكانت شدة الله تعالى عليهم بسبب عتوهم وتجبرهم على الله تعالى وظلم الإنسان أخاه الإنسان هو السبب المباشر الذي يفجر غضب الباري عز وجل، لهذا نجد المجتمعات الظالمة الآثمة يسلط الله تعالى منها أو من غيرها من يسومهم سوء العذاب كما قال الحسن البصري رحمه الله (يوشك أن تتسلط عليكم القردة والخنازير كيفما تكونوا يول عليكم حينما شكى الناس ظلم الحَجاج أما المظلوم فتصيبه نار الفتنة بسبب خضوعه والقاعدة في الفقه الاجتماعي الإسلامي من أستمرأ الهوان والإذلال غضب عليه ذو العزة والجلال)[4]، قال تعالى ﴿**وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ**

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٣.

(٢) سورة البقرة آية ١٠٥ – ١٠٦.

(٣) سورة الشورى آية ١٣.

(٤) انظر أحكام البغاة والمحاربين في الشريعة والقانون صفحات شتى للجميلي.

مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]. وكان من أسباب خروج الزبير وأم المؤمنين إلى البصرة قول الزبير ﷺ ما ظننا أن هذه الآية تخصنا إلا حينما استشهد عثمان بن عفان ﷺ الخليفة الراشد ومن الأدلة على تناسب شدة الله تعالى وعتو الإنسان قوله تعالى **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**[2]، وقال تعالى **﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾**[3] وقولنا: لا يكون الالتزام إلا بقدرة الإنسان على تنفيذ الأحكام مستوحى من الأدلة الآتية: قال تعالى **﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾**[4]، وقال تعالى **﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**[5]، وقال تعالى **﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾**[6]، وقال تعالى **﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾**[7]، وقال تعالى **﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[8]، وقال تعالى **﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[9]، وقال تعالى **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾**[10].

والجهاد أخطر حكم من أحكام الفقه السياسي الإسلامي ولو لم يستثنى الأعمى والمريض والأعرج لحدثت مشقة قصوى ولما التزم أصحاب الأعذار بحكم الجهاد المقدس ولأن لا يحرج المصابُ بعقدة العجز وهم أصحاب الأعذار، فقد قال تعالى **﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾**[11]. ومع أن التقوى هي الفيصل الذي يفرق بين المؤمنين وغيرهم فإن التقوى تقوى الله تعالى تجب بحدود الاستطاعة

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٥.
(٢) سورة البقرة آية ٥٤.
(٣) سورة النساء آية ١٦٠.
(٤) سورة الأنعام آية ١٥٢.
(٥) سورة الأعراف آية ٤٢.
(٦) سورة البقرة آية ٢٨٦.
(٧) سورة الطلاق آية ٧.
(٨) سورة المائدة آية ٦.
(٩) سورة التوبة آية ٩١.
(١٠) سورة الحج آية ٧٨.
(١١) سورة الفتح آية ١٧.

فإن كانت دون ذلك فإن وجوب التقوى يناسب بين قدرة المسلم واستطاعته، قال تعالى ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1].

والحج ركن من أركان الإسلام والإتيان بهذا الحكم فرض عين على كل مسلم ومسلمة ومع هذا فإنه لا يجب إلا على من كان قادراً مستطيعاً والاستطاعة تشمل القدرة على الذهاب والإياب بشتى صورها المادية والصحية، قال تعالى ﴿**وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾[2].

ومن الأحاديث النبوية الدالة على رفع الحرج:

١. عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: (بعثت بالحنفية السمحة)[3]..والحنفية هي: المائلة عن الباطل إلى الحق وأطلق على ملة إبراهيم عليه السلام السمحة السهلة.

وجه الدلالة: في الحديث أنه لو ثبت وجود الحرج في الشرع لم تكن الشريعة حنفية سمحة بل كانت حرجاً عسراً وهذا باطل لتكذيبه خبر الرسول ﷺ فبطل ما أدى إليه وثبت أن لا حرج في الشرع.

٢. عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (إن دين الله يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة)[4].

وجه الدلالة في هذا الحديث: أن النبي ﷺ أخبر أن دين الله يسر فكل ما جاء فيه حرج يكون مكذباً لذلك الأخبار وذلك باطل فثبت أن لا حرج في الشرع.

وثم حكمان لا يدخلان تحت القدرة البتة أبداً بل الالتزام بهما فرض عين على كل مسلم ومسلمة:

الحكم الأول: يجب على المسلم أن يبقى في دين الإسلام إلى سكرات الموت حيث الالتحاق بالعليم العلام إذْ لا يحق لأحد الاحتجاج بأي وجه من وجوه الاستطاعة والرخصة والحرج والكلفة وحدود السعة بعدم الخروج عن دين الله تعالى لأن لا يكون مرتداً، وما جزاء المرتد إلا القتل بعد الاستتابة، قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾[5].

الحكم الثاني: (حُرمْة موت الإنسان وهو ظالم) الظلم محرم تحريم قطعي بأدلة قطعية الثبوت قطعية الدلالة آيات قرآنية كريمة محكمة لا تحتمل التأويل لأنها ليست من المتشابه الذي يقبل التأويل والاختلاف والظلم مع الكفر أشد ضرراً وأعظم خطراً من جريمة الكفر والصد عن سبيل الله لأن الكفر مع الظلم اعتداء على حق الرحمن والإنسان.

---

(١) سورة التغابن آية ١٦.

(٢) سورة آل عمران آية ٩٧.

(٣) أخرجه احمد في مسنده عن طريق جابر ابن عبد الله والديلمي في الفردوس من حديث عائشة رضي الله عنها، كما أخرجه احمد في مسنده والطبراني والبزار وغيرهما عن ابن عباس، وانظر كنز العمال ١ رقم الحديث ٩٠٠.

(٤) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأيمان حديث ٢٩، كما رواه احمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ (إن دين الله يسر ثلاثاً) انظر مسند الإمام احمد بن حنبل ٦٩/٥.

(٥) سورة آل عمران آية ١٠٢.

والكفر مع الصد اعتداء على الرحمن والرحمن لم ولن يتضرر البتة أبداً خلافاً للإنسان العاجز الضعيف يحرم ظلمه وإن كان كافراً قال تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾[١]. وقال تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً**﴾[٢]. وحقوق الناس لا يغفرها إلا أصحابها قال تعالى ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**﴾[٣]. والسيئات دون الكفر في مخالفة أحكام الله وظلم الإنسان أخاه الإنسان أكبر سيئة لم تُمحَ إلا برد الظالم حقوق المظلوم قال القرطبي (السيئات ما دون الكفر أي ليست التوبة لمن عمل دون الكفر مِن السيئات ثم تابَ عِند الموت)[٤].

وقد يتعلق خطاب الله بما كان داخلاً تحت قدرة كسب المكلف والإتيان به ملزم سواء أكان مطلوباً لغيره أو لذاته ونحيل ذلك كافة الأفعال الداخلة تحت الكسب والقدرة في العبادات إلى المعاملات إلى الأحوال الشخصية إلى غير ذلك من أقسام الفقه الإسلامي وقد يكون خطاب الله متعلق بالفعل لكنه خارج الكسب وهنا يكون الالتزام بمدى قدرة المكلف على الالتزام وعلى سبيل المثل العدل بين الزوجات واجب لكن الحب أمر قلبي وجداني تحت القضاء الرحماني فلا نسأل الإنسان إذا أحب أخرى دون أخرى ولكنه يلزم بفرض العدل ونبذ الظلم بدخوله تحت القدرة وعدم دخول الحب في القدرة. ودليل أن الرحمة المهداة كان يلزم بجانب العدل في القسمة بين الزوجات ويقول (اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني بما تملك ولا أملك)[٥].

<u>المقصد الثالث والعشرون (المشقة تجلب التيسير):</u>

إذا أمعنا النظر وتدبرنا أحكام الشريعة الغراء نجد كل تكليف ابتداءً يخلو من المشقة بل الإنسان السوي قادراً على أن يأتي بالأحكام كلها حسب مدى تخصصه ومدى تعلق الحكم به هذا هو اصل التكليف الشرعي وقد استدللنا بالمقصد الثاني والعشرين بأدلة سديدة دلت مباشرة على علاقة التكليف بالسعة علاقة الروح بالجسد. وإذا وجدت مشقة لم يأمر الشرع بها فقد نهى الرحمة المهداة ﷺ عنها كنهيه عن الوصال في الصوم والتنطع والتكلف:

١. أخرج البخاري من طريق عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: سئل النبي ﷺ أي الأعمال أحبُ إلى الله قال: أدومُها وإن قَلَّ وقال: أكلفوا مِن الأعمال ما تُطيقون[٦].

---

(١) سورة النساء آية ١٦٧.

(٢) سورة النساء آية ١٦٨.

(٣) سورة النساء آية ١٨.

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩٣/٥، وانظر القول السديد للشيرازي ٤٠٤، وانظر رفع الحرج في الشريعة الإسلامية يعقوب عبد الوهاب آل ياسين صفحات شتى.

(٥) انظر كنز العمال ٧٨/٧.

(٦) صحيح البخاري ١٧٦/٨ حديث ١٨.

٢. أخرج البخاري من طريق أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : لن ينجي أحداً منكم عَمَلَهُ قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته سددوا وقاروا وإغدوا روحوا وشيء من الدُّلجة والقصد القصد تبلغُوا[١].

وضابط ذلك أن العمل إن كان يؤدي الدوام عليه إلى الانقطاع عنه أو عن بعضه أو وقوع خلل في صاحبهِ في نفسهِ أو مالهِ أو حال من أحوالهِ بالمشقة هنا خارجة عن المعتاد. وإن لم يكن فيها شئ من ذلك في الغالب فلا يجد في العادة مشقة. هذا ما ذكره الإمام الشاطبي واعتمده الأصوليون القدماء. ومن المعاصرين الأستاذ يوسف محمد العالم[٢].

والأحكام الاعتيادية العملية كلها تحت قدرة المكلفين إذْ هي خالية من المشقة المعتادة عقلاً وعملاً أيُليق بالمشقة القصوى الحكم الملزم شرعاً فينتقل الحكم من الالتزام إلى نهج التيسير ولهذا تجلت القاعدة الفقهية إذا ضاق الأمر أتسع المشقة تجلب التيسير. الضرورات تبيح المحضورات. الضرورات تقدر بقدرها. يدرء الضرر الأكبر بالضرر الأصغر إذا وقع ضرران روعي أخفهما إلى غير ذلك من القواعد الفقهية[٣] التي دلت أسمى دلالة على أن أحكام الله تعالى لا حجة البتة بالتحلل عنها بل هي ملزمة شرعاً وعقلاً لوقوعها تحت قدرة المكلف من الالتزام ولم يصدر من الله تعالى إلزام إلا والمكلف قادر على الالتزام والمشقة تجلب التيسير لها فروع فقهية شتى في الأحكام العملية إليك جانباً منها وفي الأدلة التي اعتمدت عليها هذه القاعدة الغراء:

١. قوله تعالى ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[٤].
٢. قوله تعالى ﴿**يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[٥].
٣. قوله تعالى ﴿**يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ**﴾[٦].
٤. قوله ﷺ : (بعثت بالحنفية السمحة السهلة)[٧].
٥. قوله ﷺ : (يسروا لا تعسروا)[٨].

ولهذه القاعدة تطبيقات منها قصر صلاة السفر بسبب المشقة التي تواكبها ومنها قصر الصلاة من أربع ركعات إلى ركعتين والجمع بين الأوقات وجواز الفطر في رمضان والمريض الذي يعاني مشقة موجبة للتيسير ولهذا فقد شرعت أحكام استثنائية خاصة بالمريض منها جواز الإفطار أو ترك الصيام إلى الفدية في

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) انظر المقاصد في الشريعة الإسلامية ٣٧.
(٣) انظر قواعد الكلية المذكورة في بداية مجلة الأحكام العادلية.
(٤) سورة الحج آية ٧٨.
(٥) سورة البقة آية ١٨٥.
(٦) سورة النساء آية ٢٨.
(٧) تخريج الحديث (بحث الحنفية السمحاء) احمد بن حنبل ٣٦٦/٥.
(٨) انظر البخاري كتاب العلم حديث ١١، وانظر صحيح مسلم كتاب الجهاد ٤.

الأمراض المزمنة، وجواز التيمم في الأمراض التي تتفاقم في الماء ولها تطبيقات شتى في فقه المعاملات المسمى بالقانون المدني في العصر الحديث منها:

١. فيما يخص السلم:

أـ أن عقد السلم هو بيع المعدوم: وبما أن بيع المعدوم باطل كما جاء في المادة (٢٠٥) من مجلة الأحكام فكان من الواجب تجويز هذا البيع.

ب ـ أن احتياج الناس قبل الحصول على محصولاتهم للنقود جوز هذا العقد تيسيراً أو تسهيلاً.

١.فيما يخص رد البيع:

للتيسير والتسهيل قد منح للمشتري خيار الفسخ بالغبن والتغرير.

٢.فيما يخص الشهادة:

جواز سماع شهادة النساء في الأشياء التي لا يمكن اطلاع الرجال عليها.

٣.قال الأصوليون المشقة تجلب التيسير ومن ذلك:

أ- أن الضرر في البيوع منهي عنه مقتضٍ لبطلان العقد لما فيه من أكل المال بالباطل.

ب ـ ومنها مشروعية الخيار في البيع في مجلس العقد لما كان البيع يقع غالباً من غير تروٍ فيحصل فيه الندم فيشق على العاقد. فسهل الشارع عليه ذلك بجواز الفسخ له في مجلس العقد، إذا تروى فيه لما كانت مدة التروي تحتاج إلى أكثر من ذلك شرع له اشتراط الخيار ثلاثة أيام تسهيلاً عليه ليتدارك ما عساهُ يحصل له من غبن يشق عليه التزامه[١].

المقصد الرابع والعشرون (محاربة الهوى):

إذا ترك الإنسان وما يهوى بالغ في هواه حتى مرتبة الألوهية وهي ضرب من ضروب الشرك بالله تعالى كما كان الإنسان القديم يتخذ إلهاً للحب أو يتخذ الحب إلهاً أو المرأة الحسناء إلهاً أو يتخذ الطاغية خوفاً من بطشه وجبروته إلهاً كما اتخذ قوم النمرود إلهاً واتخذ الفراعنة فرعون إلهاً إلى غير ذلك من تخبط الإنسان الحائر إذْ لا يهتدي لحكم الله تعالى الباهر قال تعالى في حرمة إتباع الهوى:

١. **﴿فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ﴾**[٢].

٢. **﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾**[٣].

٣. **﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾**[٤].

٤. **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾**[٥].

---

(١) انظر مختصر من قواعد العلائي ٢٧٩/٢.

(٢) سورة النساء آية ١٣٥.

(٣) سورة ص أية ٢٦.

(٤) سورة النجم آية ٣ – ٤.

(٥) سورة النازعات آية ٤٠ – ٤١.

٥. ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[١].
٦. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[٢].
٧. ﴿فَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[٣].
٨. ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[٤].
٩. ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[٥].

قال المفسر الزمخشري (رحمه الله) : {من كان في طاعة الهوى في دينه في كل ما يأتي ويذر ولا يتبصر دليلاً ولا يصغي إلى برهان فهو عابد هواه وجاعله إلهه. فيقول لرسوله هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه كيف يستطيع أن يدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام وتقول لابد أن تسلم شئت أم أبيت ولا إكراه في الدين وهذا كقوله ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[٦] ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[٧]، ويروى أن الرجل منهم كان يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ أخر ومنهم الحارث بن قيس الهمي}[٨].

ومعنى الهوى عند المفسرين كما نص العلامة الأصفاني (الهوى ميل النفس إلى الشهوة ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة وقيل سمي بذلك لأنه يهوى لصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية والهوى سقوط من علو إلى أسفل وقال عز وجل ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[٩] قيل مثل قولهم هوت أمه أي ثكلت، وقيل معناه مقره النار والهاوية هي النار)[١٠]، والهوى عند الفقهاء (بالتحريك مضر هوى الهوى. ميل النفس إلى ما تحب من غير الإصغاء لحكم الشريعة فيه)[١١].

المقصد الرابع والعشرون (تعدد الأجر والجزاء):

من خصائص الشريعة الإسلامية الغراء أنها أقرت الثواب جزاء للملتزمين وأقرت العقاب جزاءً على المتمردين، وأثر ذلك يتجلى في الدنيا والآخرة، إذْ غير الملتزم مهدد بعقابين، عقاب الدنيا وعقاب الآخرة. وكثيراً ما تستيقظ وتستفيق أنفس المجرمين وضمائرهم فتود عقاب الدنيا ليكون كفارة يتقي المجرم التائب به عقاب الآخرة ولهذا فإن الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية سراً كالالتزام بها جهراً. لأن المسلمين بين

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٦.
(٢) سورة الكهف آية ٢٨.
(٣) سورة طه آية ١٦.
(٤) سورة الفرقان آية ٤٣.
(٥) سورة القصص آية ٥٠.
(٦) سورة ق آية ٤٥.
(٧) سورة الغاشية آية ٢٢.
(٨) الكشاف ج٣ ص٢٨٢.
(٩) سورة القارعة آية ٩.
(١٠) مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص٥٤٥.
(١١) مفهوم لغة الفقهاء ص٤٩٥.

رقيبين، رقيب الإنسان ورقيب الرحمن. وما أوهى رقيب الإنسان، إذْ كثيراً ما يحتال عليه الإنسان. أما رقيب الرحمن فإنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، يكتب ويصور الحركات والسكنات في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، لهذا فإن الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية التزام ذاتي روحاني، أما الالتزام بأحكام القانون فهو التزام موضوعي لا يكون إلا بوجود الرقيب.

وما من عمل سواء أكان تنفيذ أمر أو اجتناب نهي إلا وهو مثمر أجراً عند الله تعالى وضده مثمر وزراً عند الله تعالى، قال تعالى ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾[١]، وقال تعالى ﴿**وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[٢]، وقال تعالى ﴿**وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾[٣]، وقال تعالى ﴿**نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ**﴾[٤]، وقال تعالى ﴿**فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[٥]، وقال تعالى ﴿**وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً**﴾[٦]**. وقال تعالى ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً**﴾[٧].

والأجر عند الله تعالى بقدر النية والإخلاص في تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي إلا أن الباري عز وجل بصفته أكرم الكرماء وبصفته المالك لكل من خلق فإنه نعم الرب وأن رحمته فاقت رحمة الأم والأب. الحسنة يقدرها تعالى بعشر أمثاله، قال تعالى ﴿**مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾[٨]. ودليل ذلك في السنة النبوية ما رواه أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إذا همَّ الرجل بحسنة فعملها كتب له عشر حسنات وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإذا همَّ بسيئة فعملها كتبت عليه سيئة، وإذا همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة لتركه السيئة)[٩].

وقد شاع في المجتمعات الإسلامية مبدأ الأجر على قدر المشقة وبالاستقراء تجلت بعض الأحاديث المروية عن الرحمة المهداة ﷺ تدل على صحة ذلك إلا أنني أرى مبدأ الأجر على قدر المشقة إذا كان اضطراراً لا اختياراً بمعنى أن طلب الشرع فِعلهُ إذا أمكن الإتيان به بلا مشقة اختياراً وجب ذلك دون اختيار الطريق الشاق بحجة الأجر على قدر المشقة وإليك بعض الأحاديث الدالة على ذلك:

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩.

(٢) سورة آل عمران آية ١٧٩.

(٣) سورة الأعراف آية ٤٠.

(٤) سورة القمر آية ٣٥.

(٥) سورة الأنفال آية ٥٢.

(٦) سورة القصص آية ٨٠.

(٧) سورة الكهف آية ٣١.

(٨) سورة الأنعام آية ١٦٠.

(٩) كنز العمال، ١١٨/٤ الطبعة الأولى، وقد رواه الإمام احمد عن طريق ابن عباس.

ما رواه جابر ﷺ أنه قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: (أنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا إلى قرب المسجد) فقالوا: يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال: (بني سلمة دياركم تكتب آثاركم)[١].

فقد جعل الثواب منوطاً بالخطوات ومعنى ذلك أنه زادت الخطوات زادت المثوبة ودرجاتها عند الله.

روى المغيرة بن شعبة أنه قال: أن كان رسول الله ﷺ ليقوم ليُصلي حتى ترِمُ قدماهُ أو ساقاهُ فيقال لهُ، فيقول: (أفلا أكون عبداً شكورا)[٢].

ففي الحديث دلالة واضحة وهو يفيد أن المشقة الحاصلة من فعله ﷺ ليست من المشقات المعتادة.

وقد روى الثقات ما يدل على أن أصحاب الرحمة المهداة والتابعين كانوا يجهدون أنفسهم في العبادة إجهاداً ليس لمثله نظير. وفي تحليلي أن كل هذه الروايات تدل على أن الصحابي لا يقصد المشقة لذاتها بل يقتدي بالرحمة المهداة قدر ما يستطيع في التقوى. قد اصطفيت ثلة من الأشعة التي شعت عن المهديين الهاديين رضي الله عنهم أجمعين:

أ- ما جاء عن عثمان ﷺ أنه إذا صلى العشاء أوتر بركعة فيقرأ فيها القرآن كله[٣].

والذي نراه أن هذه الرواية ليست ديدن عثمان في حياته كلها إذْ هو الخليفة الراشد حكم الأمة (٥) سنوات فإذا أسهر ليلهُ كيف كان يدير خلافة الأمة الإسلامية لعل حدث ذلك منه في بعض أيامه والله أعلم.

ب- ما روي عن ابن عمر والزبير أنهما كانا يواصلان الصيام ونحن لا نميل إلى صدق هذه الرواية لأن الوصال من خصائص الرسول ﷺ ولعلهما واصلا قبل ورود حديث النهي عن الوصال في الصوم.

ج- ما روي عن الإمام مالك من إجازته صيام الدهر إذا أفطر أيام العيد[٤].

د- ما روي عن مسروق أنه كان يصلي حتى تورمت قدماه وأن امرأته ربما جلست خلفه تبكي مما تراه يصنع بنفسه[٥].

والذي نراه أن هذه الظواهر ما أوصى بها الشرع بل هي اختيار من الزهاد أعلى مقامهم رب العباد.

قال تعالى ﴿**عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً**

---

(١) قال الترمذي عن هذا الحديث هذا حديث حسن غريب، صحيح الترمذي ٣٦٢/٥ حديث ٣٧.

(٢) صحيح البخاري ١٧/٢ حديث ٦.

(٣) انظر الاعتصام للشاطبي ٢٥٩/١.

(٤) المصدر نفسه ٢٥٢/١.

(٥) المصدر السابق.

حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وقد كان الرسول ﷺ ابتداءً لا ينهي عن المشقة في العبادات بل كان هو والصحابة الأبرار في الليل نجوماً وأقماراً وهم صناديد النهار لعل ذلك لأجل إعدادهم إلى يوم الفصل يوم الفرقان يوم بدر وما بعده من الأيام التي أعدوَّا فيها بجهادهم الإسلام المعتمد على أساس المتين. قال تعالى **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾**[2].

وإلى بحوث أخرى في المقاصد تترى إن شاء الله تعالى حتى يتهشم طود الكل يرى بعضهم أنها الصواب ، فلتبق كما هي فتتفجر ينابيع الأمل.

---

(١) سورة المزمل آية ٢٠.

(٢) سورة المزمل آية ٢٠.

الخاتمـــــة:

الحمد لله الذي أعاننا على كتابة مبحث المقاصد وما أخاله جامعاً مانعاً بل حسبهُ الإشارة إلى المقاصـــد العامة وسأردفهُ بمباحث أخرى شتى إن شاء الله تعتمد تحليل المقاصد الخاصة لاســيما المتعلقــة بالأحكــام العملية بادئاً بمقصد فقه العبادات ثم فقه المعاملات ثم فقه الجنايات ثم فقه الأسرة ثم فقه التركــات ثــم الفقــه القضائي ثم الفقه الاجتماعي ثم الفقه الاقتصادي ثم الفقه السياسي ثم الفقه التربوي ثم الفقه النفساني فإذا شرح الله صدرنا للكتابة في مقاصد أخرى لم نأل جهدنا في تحليلها وبهذا نخدم شريعتنا الغراء قبــل الرحيــل إلــى مبدع الأرض والسماء.